(٣٨)

قصة كعب بن مالك

عن عبد الله بن كعب بن مالك ﷺ وكان قائدَ كعب ﷺ من بنيه حين عمي ، قال : سمعت كعب بن مالك ﷺ يحدث بحديثه حين تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعبٌ : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قطّ إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفتُ في غزوة بدر ولم يُعاتَب أحدٌ تخلف عنه . ولـقـد شهـدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أُحبّ أن لي بها مشهدَ بدر وإن كانت بدر أذكَرَ في الناس منها .

التردد يفسد العزم :

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عددا كثيرا ، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ .

قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظنّ أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر (أميل)، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقتُ أغدو لكي أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئا وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم فياليتني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي .

مجتمع الضعفاء والمترددين :

فطفقتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزُنُني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله ـ تعالى ـ من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه . فقال له معاذ بن جبل ﷺ :بئس ما قلت! والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ.

الاعتذار بالكذب :

قال كعب : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثّي فطفقتُ أتذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادما راح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه .

وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعا وثمانين رجلا فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت. فلما سلمت تبسّم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك » . قال : قلت :يارسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أُعطيتُ جدلا . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك عليّ ، وإن حدثتك حديث صدق ، تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل والله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

النجاة في الصدق :

قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك » . وسار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا لقد عجزتَ في ألا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك .

قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك ، قال : قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفيّ . قال : فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا فيهما أسوة. قال : فمضيت حين ذكروهما لي .

مقاطعة المسلمين :

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال : فاجتنبَنا الناسُ حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض،فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا في ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القومِ وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني .

التزام الصف المسلم :

حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام .فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ﷺ فسكت ، فعدتُ فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتوليتُ حتى تسورت الجدار .

هذه فتنة أكبر :

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فألحق بنا نواسك فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء . فتيممتُ بها التنور فسجرتها .

اعتزل امرأتك :

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ، فقال لا بل اعتزلها فلا تقربنها وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال : « لا، ولكن لا يقربنّك » . فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

توبة الله :

فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله ـ تعالى ـ منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا وعرفت أنه قد جاء فرج .

فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله ـ عز وجل ـ علينا حين صلّى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبيّ مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس .

فرحة المسلمين بتوبة أخيهم :

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوتهما إياه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجا فوجا يهنئونني بالتوبة ، ويقولون لي : لتهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن عبد الله ﷺ يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب : فلما سلَّمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرَّ عليك مذ ولدتك أمك » فقلت : أمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال : « لا ، بل من عند الله عز وجل » ، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه .

العهد على الصدق :

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك ». فقلت : إني أمسك سهمي بخيبر، وقلت : يا رسول الله ، إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدّث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله ـ تعالى ـ في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى. والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا. وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي، قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1] .

قال كعب : والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله ـ تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[2] .

---

(١) التوبة .

(٢) التوبة .

قال كعب : كنا خلّفنا - أيها الثلاثة- عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله ـ تعالى ـ فيه بذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وليس الذي ذكر مما خلّفنا تخلفنا عن الغزو إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه [1].

دروس تربوية :

في هذه القصة كثير من الدروس التربوية التي ينبغي أن يتدبرها الدعاة إلى الله تعالى .

● **من هذه الدروس :**

أن التردد يفسد العزم ، فهذا كعب بن مالك الصحابي الجليلﷺ يسمع الأمر النبوي بالاستعداد ، ويغدو إلى سوق قومه ليتجهز ، ولكنه يسوف الأمر إلى الغد ، ثم إلى الغد الذي يليه حتى تفارط الغزو ولم ينجز شيئا ، وكذلك هو التردد يفسد العزم ويربك الإنجاز .

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

● **ومن هذه الدروس :**

أن أصحاب الهمم العالية يصعدون باستمرار إلى القمم ، ويلحق بهم أمثالهم ، فإذا صعدوا لم يبق في السفح إلا الخوالف من الضعفاء والمعذورين أو ممن في قلوبهم مرض ، وكذلك الصحابي الجليل كعب بن مالك وجد نفسه حين تخلف عن رسول الله ﷺ مع الخوالف ، ممن عذر الله من الضعفاء أو من المنافقين ، فليحذر الدعاة هذا المصير .

● **ومن هذه الدروس :**

أن يحيط القائد بظروف إخوانه جميعا ، يتفقدهم ، ويسأل عنهم ، فلم يخل العدد الكبير والجيش الجامع ، أن يسأل رسول الله ﷺ عن جنوده ، أين كعب بن مالك؟

---

(١) البخارى (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩ / ٥٣) .

• ومن هذه الدروس :

أن يلتزم المسلم الصدق وإن ظن أن في الكذب النجاة ، فلا نجاة حقيقية في الدنيا والآخرة إلا بالصدق ، فالصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ومايزال المرء يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا .

• ومن هذه الدروس :

التزام الصف المسلم بالأوامر تلقى إليه من قيادته ، حتى ابن عمه أبو قتادة يسلّم عليه فلا يردّ عليه السلام ، وكما التزم الصف فقد التزم كعب بن مالك بهذه الأوامر ، وإلا لضاع الصف وتفرقت كلمته وذهبت ريحه .

• ومن هذه الدروس :

أن الذي يتعرض إلى محنة ما في الصف ، عليه أن ينتبه جيدا فلا يؤتين من هذه الثغرة ، فحين تلقى كعب بن مالك رسالة ملك غسان ، لم يزد على أن قال: هذه فتنة أكبر.

• ومن هذه الدروس :

إن ينخلع كعب بن مالك من ماله صدقة إلى الله ورسوله، اعترافا بذنبه وشكرانا لله تعالى على قبول توبته ، فالتوبة عهد والصدقة برهان .

• ومن هذه الدروس :

الفرحة الكبرى التي فرحها رسول الله ﷺ وأصحابه العظماء بتوبة أخيهم ، فالتوبة عمل عظيم يستحق تقدير القائد وأبناء الصف جميعا ، فهي عودة المخطئ للحق ، والتزام المقصر بالصف .

هكذا كان يربي رسول الله ﷺ أبناء صفه ، وهكذا فليفعل المربون .

(٣٩)

فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما

أخرج سعيد بن منصور وابن النجار عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال : خطبت جارية من الأنصار ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال لي : «رأيتها »؟ فقلت : لا ، قال : « فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » . فأتيتها فذكرت ذلك لوالديها ، فنظر أحدهما إلى صاحبه . فقمت فخرجت ، فقالت الجارية : علي بالرجل ، فوقفت ناحية خدرها فقالت : إن كان رسول الله ﷺ أمرك أن تنظر إلي فانظر، وإلا فإني أحرج عليك أن تنظر. فنظرت إليها فتزوجتها فما تزوجت امرأة قط كانت أحب إلي منها ولا أكرم علي منها [1] .

وهذه قضية مهمة يعالجها الإسلام ، تتصل بموقف الخاطب الذي يجب أن ينظر إلى مخطوبته ، فيرى منها ما يحببه إليها ويدعوه إلى زواجها .

ولا نريد هنا أن ندخل في الآراء الفقهية ما يباح رؤيته وما يمنع ، وأين يراها وكيف ، لوحدها أم بوجود محرم لها ، فهذه أمور فصلها الفقهاء واختلفوا في بيانها وليست هي موضوعنا.

أما الذي يعنينا هنا فهو موقف تلك الفتاة المسلمة الداعية التي ما إن سمعت قول النبي ﷺ لخطيبها أن ينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ، وما أن رأت موقف والديها السلبي في تنفيذ رغبة النبي ﷺ ، استجابة منهما للعرف الخاطئ ، وحتى لا يقال : ما إن رأت خطيبها ينسحب من الموقف المحرج، حتى تولت الفتاة التصرف بنفسها. فالأمر من شأنها ، وهي المسؤولة عنه أولا وأخيرا ، فهي ابتداء التي تريد الاقتران بهذا الرجل وتحب أن تراه وتطمئن إليه ، فلمَ لا يراها هو كذلك ويطمئن إلى اختياره ؟ وهي ثانيا تعلم أن هذا الأمر في مصلحتها ، ومصلحة ديمومة بيتها وزواجها ، وهي ثالثا تنفذ أمر النبي الذي لا ينطق عن الهوى وبكل الجرأة التي تتمتع بها المسلمة الداعية، وبمنتهى الأدب

---

(١) كنز العمال (٨/ ٢٨٨).

تقول له : إن كان النبي أمرك أن تنظر إلي فانظر، وماذا كانت النتيجة؟ يقول الخاطب الذي هو المغيرة بن شعبة ﷺ : فما تزوجت امرأة قط أحب إليّ منها ولا أكرم عليّ منها.

إن العرف الخاطئ الذي يتحكم بمصير الفتاة، فتزف إلى زوجها دون أن يراها أو تراه، يجلب كثيرا من المشاكل للفتاة أولا ولسعادة بيتها وديمومة زواجها ثانيا .

هكذا يأمرنا المصطفى ﷺ أن نفعل وهو يتعهدنا بالتربية . وهكذا ينبغي أن يقتدي به المربون المصلحون فيفعلون .

(٤٠)

لا تفتوا في أعضاد الناس [1]

في غزوة الخندق كان بين رسول الله ﷺ وبني قريظة عهد ، وانتهى إلى الرسول ﷺ أن بني قريظة قد نقضوا العهد ، فبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة مع وفد من الأنصار ، وقال لهم : « انطلقوا حتى تنظروا » : أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا إلي لحنا أعرفه (أي أبلغوني بإشارة وتلميح) ، ولا تفتّوا في أعضاد الناس (أي لا تضعفوا في عزائمهم) ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به بين الناس .

يمر الناس - أفرادا وجماعات ودولا- بظروف شتى ، فيها اليسر والعسر، والأمن والخوف ، والنجاح والإخفاق ، ومن شأن معظم النفوس أن تهتز وتتضعضع أمام أخبار العسر والخوف والإخفاق ، ويجد العدو فرصته في إشاعة قالة السوء هذه ، أو يختلق أخبار سوء من عند نفسه ، أو يبالغ في تصوير حال الضعف ، ويتبعه في ذلك ويجاريه أصحاب النيات السيئة، وبعض المغفلين كذلك، فيسري اليأس في نفوس الجماهير .

وقد يجد مروّجو قالة السوء (من داخل الصف) مقولات يحتمون تحتها : بدعوى الصراحة ، وكشف الواقع للناس ، ومفاتحتهم بحقائق الأمور ، وهم في واقع الأمر لا يميزون بين ما هو خبر كاذب أو أمر مبالغ فيه ، وبين ما هو حقيقة مجردة ، فضلا عن أن نقل الحقائق المجردة نفسها أمرٌ غير جائز في كل الظروف ولكل فئات الناس. فالنفوس ليست في التحمل سواء .

والعقول ليست في الإدراك سواء . يشترك الأعداء والمشبوهون والمغفلون جميعا بهتك الأستار وإذاعة الأسرار واختلاق السقطات ، باسم الصراحة والوضوح!!

---

(١) مجلة المجاهد ـ العدد ٦٦ .

والمسلم يملك قلبا مطمئنا لوعد الله، آملا بنصره وتمكينه، على الرغم من أن الآخرين في غاية اليأس، وعلى الرغم مما يبدو من ظلم وظلام. فأي ظرف أقسى من ظروف المسلمين في غزوة الخندق؟! لقد وصف الله ـ تعالى ـ شدة الموقف على المؤمنين بعبارات تصور الصفوف والوجوه والقلوب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[1].

وكان من نتيجة هذا الابتلاء أن تمحص الصف. فالرسول القائد ﷺ وعد أصحابه في تلك الأجواء العصيبة، بنصر الله: «أبشروا بفتح الله ونصره». بل وعدهم بملك كسرى وقيصر. والمؤمنون الواعون قالوا: ﴿هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[2].

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض قالوا: ﴿ما وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[3]. وقالوا: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!

ولقد تحقق وعد الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[4]. تحقق ذلك في غزوة الأحزاب، وتحقق في مجمل حياة النبي ﷺ، وتحقق في مسيرة التاريخ الإسلامي.

وكما يحاول القائد العظيم أن يتعامل بحكمة مع أبناء أمته في أيام الشدة ليحيي الأمل في نفوسهم، ويبعد عنهم غيوم القلق، فإنه كذلك لا يفوّت فرصة لرفع المعنويات حين يحدث النصر ويتحقق الفوز. فحين سمع النبي ﷺ أحد أصحابه، بعد غزوة بدر الكبرى،

---

(١) الأحزاب.
(٢) الأحزاب.
(٣) الأحزاب.
(٤) النور: ٥٥.

يعرض خبر النصر العظيم وكأنه شيء قليل، أبى عليه ذلك، وصحح الصورة، ورفع المعنويات .

كان ذلك الصحابي يقول : إن لقينا إلا عجائز صلعا فحصدناهم حصدا . فقال النبي الكريم المعلم ﷺ : « أي ابن أخي ، أولئك الملأ » : لا تقلل من شأن ذلك النصر وترى أننا قابلنا عجائز ضعافا فلم يكن الانتصار عليهم ذا شأن ، بل أولئك الذين قابلناهم هم سادة مكة ، وأئمة الكفر ، وصناديد قريش.

والقضية بعد ذلك ليست قضية القائد وحده ، بل هي قضية الأمة والجماعة ، وكل مسلم واع يدرك دوره في التصدي للعدو وكيده ، فلا يكون بوقا في فم العدو ينقل عبره إشاعاته وأقاويله ، ولا يهتز لأول خبر يسمعه ، بل يتثبت مما يسمع ،وينقله إلى أولي الأمر، ولا يعمل على إشاعته . وأولو الأمر يقررون السياسة الأحكم في التعامل مع كل خبر .

ولربّ خبر نشره بعض الضعفاء أحدث فتنة وخبالا ، ولربّ خبر أشاعه المرجفون ، كان ينبغي كتمانه عن العامة حتى يتمكن أولو الأمر من توظيفه في خير الأمة وخير دينها : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾[1] .

هكذا علَّم النبي ﷺ أصحابه ففعلوا . وكذلك فليفعل المربون .

---

(١) الطلاق .

(٤١)

عبَّاد بن بشر

قاد النبي ﷺ ثلة من المؤمنين يقدر عددهم بأربعمائة مقاتل ، إلى ديار غطفان من أرض نجد في جمادى الأولى سنة ٤ هـ ؛ لإحباط تحركهم لحرب المسلمين . وفي **غزوة ذات الرقاع** هذه نزل النبي ﷺ بجيشه في شعب من شعاب نجد ، فطلب انتخاب من يقوم بالحراسة ، فقال : « من يكلؤنا هذه الليلة » ؟

فقام عبّاد بن بشر وعمار بن ياسر رضي الله عنهما فقالا : نحن نكلؤكم . ثم رابطا على فم الشعب، فقال عباد بن بشر لعمار : أنا أكفيك أول الليل، وتكفيني آخره . فنام عمّار وقام عبّاد يصلي . وكان أحد رجال العدو يتربص قريبا من المعسكر ، فلما رأى سواد عباد قال : هذا ربيئة القوم (حرسهم) فصوب نحوه سهما فأصابه ، فانتزعه عباد فرماه دون أن يخرج من صلاته، فرماه بسهم آخر فانتزعه واستمر في صلاته ، فلما غلبه نزيف الدم وخشي أن يغمى عليه فيبقى الجيش بدون حارس ، أيقظ عمارا وقال له (معتذرا) : لولا أني خشيت أن أضيع ثغرا أمرني به رسول الله ﷺ ما انصرفت ولو أوتِيَ على نفسي [1] .

هذا هو جيل النصر السابق ، وجيل النصر في كل وقت ، فإذا أراد المسلمون أن يعرفوا أسباب النصر ، فليتعرفوا عليها من سيرة عباد بن بشر ﷺ ، الذي تتلمذ **على يد القائد المربي ، الذي علمهم ، أن كل مسلم يقف على ثغر من ثغور الإسلام ، فلا يؤتين الإسلام من قبله.**

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٦٣ .

(٤٢)

غسيل الملائكة

أمامنا الآن صورة رائعة لشاب مؤمن اسمه حنظلة ، أبوه أبو عامر الراهب ، كان زعيما للأوس في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شرق به وفاض قلبه حقدا على النبي ﷺ فترك المدينة ومعه خمسون رجلا من أتباعه ، والتحقوا بمكة يحرضون المشركين على قتال المسلمين ، ويوم أحد قاتلوا تحت راية أبي سفيان قائد جيش مكة . كانت قريش تثأر من المسلمين لقتلاها في بدر ، وهي في نفس الوقت تريد القضاء على محمد وأصحابه وعلى الدين الجديد الذي زلزل كيانها وهدد مكانتها بين العرب .

أما حليف قريش أبو عامر، فله هدف مماثل فهو يريد اقتلاع المسلمين من المدينة ، لتعود إلى اسمها يثرب ، ويعود أبو عامر إلى زعامة الأوس مرة أخرى .

هذا أبو عامر الذي قاتل بشراسة ضد المسلمين في أحد، وأما ابنه حنظلة فقد كان نعم الشاب المؤمن الصادق ، الذي مثّل أعلى أدوار البطولة والشهامة والوفاء لدينه ونبيه . استأذن في قتل أبيه ، ولكن النبي نهاه عن ذلك . وفي قلب المعركة التقى حنظلة بأبي سفيان (قائد جيش المشركين) ، فحمل عليه، وبعد أن عقر فرسه وقع أبو سفيان على الأرض ، فعلاه حنظلة ليجهز عليه بسيفه ، ولكن أحد مرافقي أبي سفيان وهو شداد بن الأسود ضرب حنظلة بالسيف فقتله .

وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة المشهور . ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال ـ بعد أن استشهد حنظلة البطل : « إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه » ؟فسئلت زوجه (وهي جميلة بنت أبي سلول) وكانت عروسا عليه تلك الليلة ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع نداء الجهاد . فقال رسول الله ﷺ : « كذلك غسلته الملائكة » .

لقد تشبثت به وحاولت إقناعه بعدم الخروج ، ولكنه مضى يلبي نداء الجهاد ولم يمض على زواجه غير ليلة واحدة .

هذا هو الشباب الذي تربى في مدرسة النبوة ، علمته هذه المدرسة ، أن تلبية نداء الواجب ، أهم من أي شيء آخر ، فعليه أن يكون مستعدا أبداً .

وكذلك على شبابنا اليوم أن يتعلموا ذلك من غسيل الملائكة .

(٤٣)

من يأخذ هذا السيف بحقه؟

في غزوة أحد ، عبأ رسول الله جيشه ، ثم جرد سيفا باترا ، وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » .

فقام إليه رجال ليأخذوه فأمسكه عنهم ، ومن هؤلاء الرجال : علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعمر بن الخطاب ، ثم قام إليه أبو دجانة (وكان رسول الله ﷺ يقصده) فقال :وما حقه يا رسول الله ؟فقال ﷺ : « تضرب به حتى ينحني » . فقال أبو دجانة : أنا آخذه ، فدفعه إليه .

قال الزبير بن العوام : وجدت في نفسي حين سألت رسول الله السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، والله لأنظر ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فجعل لا يلقى أحدا إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحا إلا ذفف عليه ، فدنا منه أبو دجانة ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله .

وقال كعب بن مالك ، وهو يتابع معركة أحد : فإذا برجل من المشركين جمع اللأمة (أي استكمل كل عدة الحرب) يجوز المسلمين ، وإذا برجل من المسلمين ينتظره ، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين ، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال : كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة .

وختم أبو دجانة دوره في غزوة أحد ، فقد أقام من نفسه سورا ليقي رسول الله ﷺ وقع سهام العدو المنهالة عليه ، فقد ترس بنفسه دونه معرضا جسمه لسيل نبال العدو المنهمر من أقواس المشركين . ولقد ذكر المؤرخون أن نبال المشركين المصوبة نحو الرسول ﷺ كانت تقع في ظهر أبي دجانة البطل وهو مسوّر بنفسه على رسول الله ، وكان لا يأبه لها مع أنها تغرز في ظهره بكثرة حتى أن بعض المؤرخين شبه ظهر أبي دجانة بظهر القنفذ .

وهنا الدرس ، فمن مهمات القائد أن يعرف أصحابه وإخوانه ، وأن يضع كل إنسان في الموقع المناسب ، استغرب الكثيرون أن يعطي رسول الله ﷺ السيف إلى أبي دجانة ، فهم لا يعرفونه ، ولكن القائد كان يعرفه ، ويعرف قدرته على الوفاء بما ندب نفسه إليه .

وكذلك على الدعاة أن يفعلوا ، أن يستكشفوا طاقات إخوانهم العاملين معهم ، ويضعوا كل طاقة في مجالها .

(٤٤)

سعد بن الربيع

بعد انتهاء القتال في أحد، بدأ رسول الله ﷺ يتفقد شهداء المسلمين ، وأمر النبي ﷺ أصحابه في التحقيق في مصير البطل سعد بن الربيع (أحد قادة الأنصار) أهو في الأحياء أم في الأموات ؟ وانطلق محمد بن مسلمة الأنصاري يبحث عن سعد، وبينما هو يتجول في أنحاء المعركة إذا به يجد سعدا مضرجا بدمائه ، تنزف جراحه بغزارة ، يجود بنفسه على آخر رمق .

فانحنى عليه وأخبره بأن رسول الله ﷺ بعثه لتفقد حاله ومعرفة مصيره ، قال له سعد بصوت خافت : أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك (يعني الأنصار) عني السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف ، قال محمد بن مسلمة : ثم لم أبرح حتى مات . قال : فجئت رسول الله فأخبرته خبره .

إن جيشا فيه أمثال سعد بن الربيع لا بد أن ينتصر، وإن سعدا هذا هو ابن الإسلام الذي تربى على هذه الدعوة المباركة تحت إشراف النبي المربي ، بهذا الحب العظيم الذي انعقد بين الرعيل الأول والقائد، قام الصف وتلاحم وانتصر وسجل للعالمين ملحمة الإيمان، ملحمة العدد القليل يهزم بإيمانه العدد الكبير المدجج بالسلاح بإذن الله .

نلاحظ في هذه اللوحة المعبرة :

* اهتمام القائد بإخوانه ، يتفقدهم ويسأل عنهم .

* واهتمام الجندي بالدعوة ، حتى وهو يجود بأنفاسه الأخيرة .

* وثقة سعد بالدعوة ، وهي من أسباب النصر .

(٤٥)

انفروا خفافا وثقالا

قال ـ تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1] . انفروا في كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخبر ، فنفروا والعوائق في طريقهم ،والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار . ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة ﷺ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا ، جندوني يا بني . فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكرر ﷺ حتى مات ، ومع عمر ﷺ حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير، فدفنوه بها.

وروى ابن جرير (بإسناده) عن أبي راشد الحراني قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة ،وقد فضل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك. فقال: أتت علينا سورة البَعوث. ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾[2].

وروى ابن جرير (بإسناده) عن حيَّان بن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان واليا على حمص ، فرأيت شيخا كبيرا هرماً ، قد سقط حاجباه على عينيه من

---

(١) التوبة .

(٢) التوبة : ٤١ .

أهل دمشق على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك . قال : فرفع حاجبيه فقال : يا بن أخي استنفرنا الله ، خفافا وثقالا . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله ـ عز وجل .

بمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله ، انطلق الإسلام في الأرض. يُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة [1] .

هذا فَهْمُ المسلمين الأوائل للأمر الرباني ، وهذه جديتهم في تنفيذه ، فهلاّ يحافظ الدعاة اليوم على إرث أجدادهم المؤمنين ، فينفروا خفافاً وثقالا، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فيستحقوا أن يكونوا خير خلف لخير سلف ؟!

(١) فى ظلال القرآن : سيد قطب ٣/ ١٦٥٧ .